من التاريخ الإسلامي .

هنـــد والمغيرة

للأستاذ علي الطنطاوي

في عشية (من عشايا سنة ٤١ للهجرة) ساكتة لا يسمع فيها إلا الصمت ، في برية هادئة لا يُرى فيها إلا السكون ، كان يرى القادم على (الحيرة) إذا هو اجتاز بدير هند ، عند النخلة المتفردة التي قامت على الطريق ، عجوزاً طاعنة قد انكمشت وانطوت على نفسها وجلست صامتة وحيدة تجيل عينيها الضعيفتين في هذه الدنيا الصامتة التي دارت من حولها ، فتبدل كل شيء وهي ثابتة : كانت نبتةً طرية مزهرة في ذلك الروض ، فباد الروض كله وبقيت هي وحدها حطبةً يابسةً . وكانت كلمة في كتاب الماضي ، فمحيت سطوره كلها وبقيت هي وحدها الكتابَ . هذه العجوز التي تراها تحسبها قد فرغت من الهم ، واستراحت من الحزن ، تطوى أضالعها على ذكريات ضخمة لعالم كامل أخفى عليه الدهر وأضاعه ، ولم يدع منه إلا هذه الذكريات تحفظها وتحملها وحدها . إنها لا تعيش في دنيا الناس ولا يعيشون في دنياها . إنها لا تعرف شيئاً مما يحيط بها ، ولا تنسى شيئاً من عالمها الذي افتقدته من زمان ، عالم الحيرة وعديّ بن زيد والنعمان ، العالم الذي احتوى مسراتها وأحزانها وروحها ، فلما مرّ حمل ذلك كله معه فعاشت من بعده بلا حب ولا مسرات ولا أحزان ولا روح ، إلا هذه الذكريات التي تنفّر كل يوم نقرة في قلبها ، فلو كان حجراً صلداً لتفتت فكيف وهو من لحم ودم ؟

لقد بنت هذا الدير وتوارت وراء جدرانه ، وعاشت منه في المنطقة الحرام بين الحياتين ، فلا هي بحياة الناس الدنيا ، فيها متعها وملاهيها ومشاغلها ، ولا هي بالحياة الأخرى ، منطقة وراء الحياة ودون الموت ، هي معيشة الدير . وزادها ضيقاً وجموداً أنها في الدير وحدها ، بَنَتْه لتأوي إليه تناجي فيه ذكريات حبيبها الذي فجعت به ، وعافت لأجله الأرض برحبها وسعتها ، وصبرت على هذا السجن الدهر الأطول ، لا تدري مما وراء بابه إلا طرفاً مما

ألم تعلمه كيف ينتال حقوق الناس ؟ وهل أنت إلا واحد من الناس ؟ فكيف تريده على ألا ينتال حقك فيما ينتال ؟ ما أجدرك — يا صاحبي — أن تشكر لهذا الرجل أمانته في الانتصار لرأيك ، والتحمس لخطتك ، والانتفاع بتدبيرك ومشورتك . لقد لقنته درساً في الأثرة والأنانية فحفظه عنك ولم ينسه لك . وسننت له سنة من سنن العقوق والغدر ، فاقتفى آثارك ، وارتضى سيرتك . ولو حسنت له الوفاء ، ورسمت له طريقه لوفى لك دينك فيما وفى للناس .

ثم خبرني ربك — يا أبا عامر — أتراك كنت شاكياً غدره وتفريطه في رد الأمانات إلى أهلها لو أنه وفّى لك دينك وحدك ، ثم اغتال دون غيرك ؟

أرأيت — يا صاحبي — لو سمعت أن رجلاً هدى الذئب إلى طريق الغنم بعد أن أخذ عليه ما شاء من عهود ومواثيق أن يعفى شاته من بينها جميعاً ، أتراه كان فاعلاً ؟

لقد علمته العواء فعوى ، وأرشدته إلى طريق الغواية فغوى !؟

واستباح من الحقوق ما استباح ، بفضل ما علمته من فنون العواء والنباح .

وليس هذا أول من نبح ، فكسب بنباحه وربح : وكم من الناس آثروا أن يبلغوا أهدافهم بالهراء ، ويتسنموا المجد بقول جفاء . فتصنعوا الجنون ليصبحوا أعزة ، بعد أن أعوزهم أن يظفروا في ظلال العقل بالكرامة والعزة ، كما فعل صاحبك « رأس الوزة » .

فلترض يا صاحبي بهذا الجزاء العادل ، فما ظلم « رأس الوزة » ولا غبن ، ولكنك ظلمت نفسك بتلك المشورة فيمن ظلمت من الناس ، فلا تجزعن من سنة سننتها ، وخطة نهجتها . ولك أسوة سيئة في شبيهك الذي وصفه الشاعر حين قال :

وكنت إماما للعشيرة ، تنتهي
إليك ، إذا ضاقت — بأمر — صدورها
فلا تجزعنْ من سيرة أنت سرتها ،
فأول راض سنة من يسيرها

عبد الله عجما — وفق الأمل — كامل كيلاني

يحمله إليها رجال القوافل الذين كانوا يمرون بها ، وكان أقصى ما تصنعه إذا هي نشطت يوماً ، وأحبت أن تفارق مَسْكَنها ، أن تسلك هذا الطريق الذي طالما مر عليه فاتحون ومنهزمون ، وسارت فيه الحضارة مُصْعدة وهابطة ، ومشى فيه ملوك وسوقة ، وسوقة وملوك ، ذهبوا جميعاً إلى حيث لا يؤوب ذاهب ، حتى تتعب من السير ، فتجلس على رابية ، وتشرف على البلد الحبيب : الحيرة ، التي كانت يوماً موطن هواها ، وكان فيها الإنسان الذي أعطته قلبها وأعطاها متعة العمر ، فترى الحيرة لا تزال ترفل في حلل الخزامى والأقحوان ، ولا تزال قصورها البيض تخطر تياهة بين البساتين ، ولا يزال نسيمها معطراً بأنفاس المحبين ، تعطف على وجهه وسوسات القُبَل وهمسات الغرام . ولكنها لم تكن تحيا فيها ، كانت تفكر في ماضيها ، وما أصعب أن يعيش المرء في الماضي ، ثم تذكر أنه لم يبق أحد من ناس بلدها الحبيب ، لقد ذهبوا ، ولا تدري أين ذهبوا ، ولمَ بقيت هي وحدها من بعدهم ؟ وجاء هؤلاء ، ولا تدري من أين جاءوا ، حتى تغرب الشمس وراء الأفق البعيد ، وتمشي الظلمة إلى الكون ، فتعود وفي قلبها ظلمة أخرى ، ولكنها لا تأمل أن يكر عليها فجر يوم جديد . لقد خلفت ضياء الفجر في طريق العمر فلا تملك أن تعود إليه . لقد كتب عليها أن تعيش في ليل دائم وصمت سرمدي هو صمت هذه الصحراء التي آوت إليها ، وآثرت سكناها ، الصحراء التي وسع صدرها أسرار الزمان ثم أغلق عليه إلى الأبد . كم بين ترابها ورملها ، كم تحت روابيها وقُورها ، من بقايا قلوب كانت محبة وكانت محبوبة ، وأجسام كان فيها فتنة وجمال ! وما أقرب ما يصير قلبها هي (أيضاً) تراباً فيها تطؤه أقدام لا تعرف أصحابها ... فما الحب ، وما الجمال ، وما الدنيا ؟ إنها زوال في زوال .

وقامت العجوز تجر رجلها إلى الدير لتبدأ ليلة مملة طويلة كآلاف الليالي التي مرت بها من قبل ، ليالي لا آخر لها ، ولا أمل يسطع من خلالها . إن السجين يأمل بالعفو ويرجو الحرية ، ويتسلى بحديث الرفاق ، ويأنس بأحداث السجن ، وهي لا ترجو شيئاً ولا تأنس بأحد ، ولا تتسلى بحادث . ولطالما أمضت ليالي قصيرة حلوة ، تلك هي ليالي الحب والوصال ، ليالي زوجها عدي فتى الفتيان ، وأبيها النعمان . إنها كلما فكرت فيها رأتها دانية منها ، قريبة كأنها لم يطلع لها صبح ، فأين يا تبصر[1] مكانها من الوجود ، أفنيت وعادت عدماً ؟ لا ، إن الفناء لا يقوى عليها . إنها موجودة في الكون كوجودها في ذاكرتها . إن الفناء لا يدرك حقيقتها كما أن النسيان لا يقوى على محو صورها . إنها لا تشبع من الإيغال في هذا الماضي ، لأنها كلما أوغلت فيه جَدَّتْ لها طرق ظليلة لا عهد لها بها ، قد أزهر فيها المجد وبدا السنا ، ورُجّاً على كل رابية فراش عرائس مرشوش بالعطر والشعر ، ووجوه أحبّة كانت تعيش بهم ولهم ...

ولطالما اجتوت (من محبتها هذا الماضي) حاضرَها فخامرتها فكرة الموت ، فمشت تقصد النهر حتى إذا أدنتها خطاها الواهنة من مائه ، ورأتها تلمع كالمرآة ، أشفقت من الموت وهابته وارتدت عنه للمرة الخامسة بعد الألف . إنها لا تريد أن تموت ، ولا تزال متعلقة بحياة قد أقفرت من المجد والحب .

* * *

ولما دلفت إلى مخدعها في الدير سمعت ضجة ، وقالوا لها ، إنه الأمير المغيرة بن شعبة يستأذن عليك . الأمير ؟ ما لها وللأمير ؟ ما شأنه بها ؟ ما يبتغي لديها ؟ أما تركت له ولقومه ملك أبيها فلم لا يترك لها ديرها ؟ وفكرت ... ثم أذنت له . فدخل عليها فبسطت له تَسْحاً ، وسألته : ما جاء بك ؟ قال : جئتك خاطباً ؟

خاطباً ؟ إنها كلمة لم تسمعها من عمر طويل ، فلما طرقت سمعها هزّت وتراً في قلبها كان قد صدئ ، ونسيت ضيفها وقفزت إلى الماضي فغابت عن حاضرها ، وغرقت في ذهلة عميقة امتدت أبداً ، والمغيرة يرقب جوابها ولكنه كان أكيَسَ من أن يفسد عليها أحلامها ، فانتظر سارياً ...

* * *

تخيلت أنها قد عادت فجأة تلك الفتاة التي كانت فتنة القلب والنظر ، وكانت مطمح الأنفس والفكر قد جمع الله لها المجد كله والجمال كله ، فهي عروس الزمان بهاء وحسناً ، وهي بنت النعمان أعز عربي عزاً ، وأمجده مجداً ، وإنها قد عادت أيام الحيرة ، ورجع

(١) إذا جاز أن تقول (يا ترى) فلم لا تقول (يا تبصر) فتجيء من هذا الابتذال وتأتي بجديد والاعراب في كليهما واحد فتقدر ل (يا) منادى وخاطبه

القصح والشمانين ، فخرجت إلى البيعة تتقرب فيها ، فلما احتوتها البيعة ، وأمنت الأنظار ، ألقت عنها خمارها ، وأخرجت هذه اللؤلؤة من صدفتها ، وأبدت ذلك الجسم الذى كانت تتقطع على الوصول إليه قلوب الرجال ، ولم تدر أن الزمان أراد أن يؤلف قصة حب تتلى بعد أربعة عشر قرناً ، فجاء بعدى بن زيد الشاعر الجميل ليختلس النظر إليها ، ويقع فى قلبه هواها ، فلما رأته استترت منه وسبت جواريها ، وظنت أن القصة ختمت قبل أن تفتتح ، لم تدر أنها قد سطرت منها الأسطر الأولى (لتكون سفر سعادتها العاجلة وشقائها الطويل) يدا (مارية) الجميلة الخبيثة ...

لقد كانت مارية تحب عديا ، ولا تجد إلى الوصول إليه سبيلا ؛ إلا أن تأتى بهند لتحلها مكان المحبوبة من قلبه ، ترضى بذلك حبها ونفسها ، وقد يفنى الحب فى الحبيب ، فيبنى سعادته على أساس من شقاء نفسه ، ومشت بين عدى وهند تدبر خيط الحب من حولها ، حتى غدا سبباً قويا ، وجامعة لا تنقطع . لقد صبرت حتى مضى حول كامل على يوم الشمانين ونسيته هند ، فواعدت مارية عديا بيعة ثوما ، وأغرت هندا بزيارتها ، فاستأذنت أمها فأذنت لها وهنالك عرفت هند ما الغرام ، وذاقت غصصه ...

يا ويل مارية ! لقد جعلت هنداً مهراً لها لزواج ليلة[1] لقد تعرضت لعدى غداة يوم ثوما فهش لها وبش — وقد كان لا يكلمها — وقال لها : ما غدا بك ؟ قالت : حاجة ! قال : اذكريها فوالله لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك إياه .

قالت : أريد ... وسكتت ، وأدركها الخجل ، ونطقت عيناها وفهم عنها ، فأخذ بيدها إلى حانوت خمار فى الحيرة ... وكافأته بأن وعدته أن تحتال له فى هند ....

وتتالت الصور على قلب هند ، فذكرت ليالى زواجها بعدى ، فكانت لقوة الذكرى تحس على لسانها حلاوة تلك القبل ، وتجد على عنقها لذة ذلك العناق ، وعاد قلبها شابا ؛ على أن قلب المرأة والشاعر لا يفارقهما الشباب أبداً . ومدت يدها إلى المغيرة ، تحسب أنه لما طغى عليها من الخيال ، عدى الحبيب ، فلما أحس بها أجفل منها وانتفض ، فتهاوى الحلم وتهافت ، وهبطت المسكينة إلى أرض الحقيقة الصلدة ، فإذا هى لم تفارق أرضها ولم تطر فى سماء الأمانى وإذا هى تتحسس وجهها فتلقاه ذابلا ذاوياً ذا غضون . ولا تلقى على لسانها من قبل الحبيب إلا مرارة الفقد ، ولا تجد فى قلبها إلا ذكرى الفاجعة التى تركت لأجلها دنياها وبنت دورها فجست فيه نفسها ، فماذا يريد منها هذا الرجل الذى اقتحم عليها معتزلها فى هذه العشية الساكتة ، أجاء يخطب عجوزاً قد بقيت وحدها إرثاً من الدنيا التى فنيت واضمحلت : دنيا النعمان وكسرى ، للدنيا التى يظهر أنها لن تضمحل أبداً : دنيا محمد ؟ أيريد أن يتزوج ميتة تمشى ؟ لا . بل هو يريد ابنة النعمان ، ونسيت تطوافها الأليم بمرابع ماضيها ، وغاب عنها الحبيب الذى كان يتراءى لها من وراء حجب الزمان — وأدركها ارثها الماجد من حزم النعمان — فقالت للمغيرة :

« لو علمت أن فى خصلة من جمال أو شباب رغبتك فى لأجبتك ، ولكنك أردت أن تقول فى المواسم ، ملكت ملكة النعمان بن المنذر ونكحت ابنته ، فبحق معبودك هذا أردت » ؟

قال : « أى والله » قالت : « لا سبيل إليه[1] » .

* * *

وخرج المغيرة ، وعادت العجوز إلى مكابدة الذكريات وحيدة فى لياليها الطوال ... وأعرض عنها التاريخ لا يلتفت إليها فيواسيها ، لأنه لم يتعود الوقوف إلا على أبواب الملوك ، وفى ساحات الحروب !

على الطنطاوي

(١) جمل من التاريخ ، والقصة على عهدة الشيخ الأموى صاحب الأغانى

(١) لأنهم كانوا قوما نصارى تحرم نساؤهم .

وزارة المعارف العمومية

تعلن عن حاجتها إلى معلمات للموسيقى فى مدارسها يقمن بتدريس قواعد الموسيقى والعزف والصولفيج والأناشيد بمرتبات ستقدر حسب المؤهلات . وتقدم الطلبات للادارة العامة لتعليم البنات لغاية ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٤٥ وتحضر الراغبات إلى المدرسة السنية بالقاهرة فى ٢٩ منه

٤٥١٠